

دور النساء في عصور الأنبياء

تأليف : الشيخ محمد عزت الشريف

تجميع : وفـاء محمد عزت الشريف

دار عمار

دور النساء
في
عصور الأنبياء

الطبعة الأولى

١٣٢٣هـ / ٢٠٠٣م

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٢/٧/١٧٩٠)

٣٠٥,٤

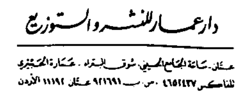
دور   دور النساء في عصور الأنبياء / تاليف محمد عزت الشريف ، جمع وفاء محمد الشريف .- عمان : الجامع ,٢٠٠٢

(   ) ص

ر.إ : ٢٠٠٢/٧/١٧٩٠

الواصفات : / المرأة / دور المراة / حقوق المرأة / الإسلام // وضع المراة /

• تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية





دور النســاء

فــي

عصور الأنبيـاء

تأليف

الشيخ محمد عزت الشريف



إهداء

إليك يا والدي . . .

يا من كتبت هذه الكلمات بخط يدك. . .

وبعد وفاتك قمت على جمعها من قصاصات الورق. . . .

وطبعتها علَّها تكون في صحيفة أعمالك وميزان حسناتك. . .

إليك يا والدي . . .

يا من زرعت فينا بذور المحبة لله. . .

يا من كنت مثالاً يحتذى وقدوة لنا في حياتك وبعد وفاتك. . .

إليك يا والدي هذا الكتاب الصغير . . .

منك وإليك. .

قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . . . صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده» رواه مسلم.

أبناؤك

هاني. . أحمد. . وعلي. . صفاء. . وفاء. . هناء. . ورجاء

وعنهم ابنتك: وفاء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

بسم الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والصلاة والسلام على رسول البشرية جمعاء، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد...

هذا كتاب ألفه والدي الشيخ محمد عزت الشريف (رحمه الله) قبل وفاته، وقمت على جمع قصاصات الورق وترتيبها وطباعتها، علّها تكون له في صحيفة أعماله وينفعه الله بعلمه.

ففي هذا الكتاب اخترت من القصاصات (والتي اعتبرها ثروة حقيقة) ما يخص المرأة بالذات، فيما كتب وألف، وطبعتها في كتاب أسميته (دور النساء في عصور الأنبياء) ففي هذا الكتاب بَيّن الوضع التاريخي للمرأة على مر العصور والأزمان، وخاصة في عهود الأنبياء والمرسلين، واختار مجموعة من النساء ممن كانت لهن أدوار مُثلى في الحياة العملية علها تُفيد نساءنا في هذه الأيام...

ثم انتقل إلى ذكر السيدة مريم البتول وكيف اصطفاها واختارها، وهي امرأة من بين سائر البشر، والغاية من اصطفائها، ثم تدرج في ذكر والدة مريم امرأة عمران لبيان كيف تربت في بيت طهر وعفاف، ولبيان سبب اختيارها لهذا الاصطفاء من بين البشر.

وانتقل إلى عهد موسى عليه السلام وبيّن دور النساء في عصره، ودور

كل واحدة منهن، سواء أكانت أمه أو أخته أو ابنة شعيب عليه السلام أو زوجة فرعون، مع بيان عمل كل واحدة منهن وأثرها الطيب، لعلها تكون قدوة وأسوة لنسائنا المسلمات في هذا العصر...

وبعدها انتقل إلى ذكر عهد سيدنا سليمان عليه السلام والمرأة التي شاع ذكرها في سورة النمل، وكيف هي سياستها وحكمتها وفراستها في بيان الأمور وخاصة في ذلك العهد...

ثم انتقل إلى المرأة في عهد البعثة المحمدية، وأي من النساء كان لها الدور العظيم مثل السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، أو السيدة عائشة رضي الله عنها، أو أم سلمة وغيرها من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وأرضاهن ...

ثم انتقل إلى بيان عهد المرأة في الإسلام مقارنة بعهد المرأة عند الأمم القديمة، وكيف كرمها الإسلام في حين أهانتها الأمم القديمة، واعتبرتها رجساً من الشيطان الرجيم، أما الإسلام فأعطاها جميع حقوقها، وفي هذا ردٌّ على الذين يتهمون أن الإسلام ظلم المرأة ...

ومن هذه الحقوق حقها في اختيار زوجها، وبيّن أصوله وكيف ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في المعاملة والحقوق الزوجية، وكيفية معاملة الزوجات، ثم تطرق إلى موضوع الحجاب لأنه موضوع خاص بالمرأة فبيّن حكمه وكيفية المحافظة عليه، ثم عرّج على موضوع تعدد الزوجات وبيّن الحكم الشرعي فيه وأسبابه والحكمة من إباحته للمرأة وللرجل، والغاية المقصودة منه رحمة بالمرأة قبل الرجل...

هذا هو مضمون الكتاب، أرجو أن يستفيد كل من يقرأه، ويدعو لمؤلفه...

وأرجو من الله أن ينال مؤلفه الدرجات العلى في الجنة آمين . .
آمين . . .

والله من وراء القصد

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وفاء الشريف

القرآن والمرأة

(١)

يظن كثير من الناس أن خَطل الرأي، وفساد التدبير، وضعف التفكير من الخِلال التي خُلقت عليها المرأة، وأنها لا تستطيع - بمقتضى الخلق والتكوين- أن تكون غير ذلك، ومن هنا تراهم يصدِفون عنها بمواضع الرأي، ولا يعبأون بمشورتها، ولا يعتُّدون بأفكارها، بل ترى طائفة منهم أو طوائف إذا وجدوا ناشئاً هزيل الخلق غير كامل الرشد قالوا: تربية امرأة، وإذا سمعوا برأي فاسد أو فكرة منحرفة قالوا: رأي امرأة ... وهو موقف دفعهم إليه ما تخيلوه من أن الأنوثة يتبعها ضعف في البدن والعقل، وأن الذكورة هي موطن القوة والسداد.

والحقيقة أن الطبيعة البشرية في الرجل والمرأة تكاد تكون على حد سواء، وأن الله وهب للنساء كما وهب للرجال، ومنح كلاً من الرجل والمرأة المواهب التي تكفي في تحمل المسؤوليات، والتي تؤهل كلاً من العنصرين للقيام بالتصرفات الإنسانية العامة والخاصة.

ومن هنا جاءت أحكام الشريعة الإسلامية تساوي بينهما في التكاليف الشرعية، وتضعهما في إطار واحد فهو يبيع ويشتري ويزوج ويتزوج ويجني ويعاقب ويدعى ويشهد... وتلك تبيع وتشتري وتزوج وتتزوج وتجني وتعاقب وتدعى وتشهد... ولو تتبعنا حالتي الرجل والمرأة لوجدناهما في خضم هذه الحياة كمؤسسي شركة أو مصنع وزعت أعماله المتعددة في نواحيه المختلفة، والتي لا قوام لها إلا عليهما معاً، كلٌ

يقوم بنصيبه في هذه الشركة، ولكل منهما فيما يقوم به علمٌ وحكمةٌ وتدبير ونظر .

الوضع التاريخي للمرأة

(٢)

وإذا كان القرآن قد رسم الخطوط العامة التي يشترك الرجل والمرأة بالسير فيها، وتجلى منها أن وضع المرأة على وجه عام هو من نوع وضع الرجل، وإن كلاً من الوضعين يكونان الوضع العام للحياة في أعمالها ومقتضياتها ومسؤولياتها وتبعاتها.

فإن القرآن سار بهما في التحدث عنهما بإبراز المصلحين والمصلحات، وإبراز المفسدين والمفسدات على هذا النحو الذي يشتركان فيه، والذي يدل دلالة واضحة على أنهما من قديم الزمان قوتان تعملان وتوجهان وتكتسبان، وأنهما قد تكسبان الخير والصلاح، وقد يكتسبان الشر والفساد.

وإن التاريخ وأقلامه التي لا تُنسى تسجل للمصلحين صلاحهم وللمصلحات صلاحهن، وتسجل على المفسدين إفسادهم وعلى المفسدات إفسادهن، وبذلك تطابق الوضع التشريعي القرآني للرجل والمرأة مع الوضع التاريخي القرآني لهما..

ففي التاريخ الذي قصه القرآن الكريم عن الأولين والذي حفظناه عن عهد الرسالة المحمدية، أبرز الأمثلة التي تبين أن وضع المرأة التاريخي كوضع الرجل التاريخي . . .

عند الرجل ثقة بالله، وسلامة في الرأي، وحسن في التدبير، ودقة في

النظر، وقوة في الفراسة وقدرة على استجلاء الحقائق الغامضة، وتصريف الشئون على أساس متين ... وعند المرأة من كل ذلك ما يحفظ لها مكانتها بل وفضلها إزاء أخيها الرجل...

اصطفاء واصطفاء

(٣)

أنبأنا القرآن الكريم أن الله اصطفى من النساء كما اصطفى من الرجال . . .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴿٣٤﴾ ﴾[1] . . .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[2] . . .

وقال أيضاً في محكم تنزيله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[3] . . .

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) سورة آل عمران.

(٣) سورة الأحزاب.

امرأة عمران وابنتها مريم

(٤)

وأنبأنا القرآن الكريم أن الله تقبل المرأة فيما يتصل بشؤون العبادة، والقيام بخدمة أماكنها المقدسة كما يتقبل من الرجل، وقص علينا في ذلك ما كان من شأن امرأة عمران، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴿٣٧﴾﴾[1] . . .

كان من المعروف أن الذي يقوم بخدمة الأماكن المقدسة هو الذكر دون الأنثى، وفي ظل هذا العُرف المنحرف، تحسرت امرأة عمران حينما وضعت حملها المنذور أنثى، وظنت بمقتضى السائد في العُرف إذ ذاك أن قد فاتها الوفاء بنذرها، فأبطل الله عليها هذا الظن وأنبأها أنه في المهمة التي لأجلها نذرت ما في بطنها يتقبل الأنثى كما يتقبل الرجل، بل قال هنا بعض المفسرين إن قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ من كلام الله ومعناه أن رجلاً من الرجال لا يصل في هذه المهمة إلى مرتبة هذه الأنثى التي اصطفاها لأمر أراده بعد، والقصد تخطئة امرأة عمران في تحسرها على أنها وضعت أنثى وفي ظنها أن الرجل هو المقبول دون الأنثى.

وقد أبدت الإيمان واللجوء إلى الله واضحة فيما قالت، حينما عَوَّذت

---

(١) سورة آل عمران.

ابنتها بالله من الشيطان الرجيم، وحينما امتد نظرها إلى الأفق البعيد، فلم تكتف بتعويذ ابنتها حتى عوذت معها ذريتها من الشيطان الرجيم قال تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾...

وأنبأنا القرآن الكريم أن زكريا (وهو نبي مرسل قد كفل مريم كما قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾[١]...

احتلت مريم من قلب زكريا مكاناً علياً، هيأه لها عقلها ورشدها وسداد إجابتها وحسن عبادتها، وكمال ثقتها بالله، وأوحى إليه قولها في شأن الرزق الذي ما كان يعرف مصدره - إن عطاء الله لعبده - لا يتقيد بسنّة معروفة، ولا يتوقف على سبب معين، ولا حالة معينة فهو يعطي إن شاء ويمنع إن شاء، فدفعه ما رأى منها وما سمع إلى الالتجاء إليه سبحانه فيما يهمه من أن يكون له ذرية طيبة، على ما به من كبر وشيخوخة، وما بامرأته من عقم وعقر قال سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ ۝٣٩﴾[٢]...

وبذلك كان يحيى عليه السلام (أثراً لدعوة زكريا التي وجهته مريم إليها، وأوحت بها إليه، وبمريم هذه ابتدأ العالم مرحلة جديدة من المراحل الإلهية، وكان مظهرها البارز ولسانها الناطق، وربانها الطاهر عيسى كلمة الله ... عيسى بن مريم، وحدها قد اختصت به الأنثى ليس للرجل فيه نصيب.

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) سورة آل عمران.

المرأة في عهد موسى عليه السلام

(٥)

وإذا كان عهدٌ يذكِّرُ بمريم وأمها، ويذكِّرنا بزكريا ويحيى عليهما السلام وما كان للجميع من سمو ومكانة وقيادة روحية، سجلها القرآن الكريم الخالد، فإن عهد موسى عليه السلام يذكرنا بعدة نساء كان لهن أثر وتدبير وفراسة وقوة وإيمان، خِلالٌ اجتمعت فيهن، وحفظن بها موسى عليه السلام قائد العهد الذي اصطفاه الله برسالته وكلامه . . .

وقد سجل القرآن الكريم شأنهن في هذه المرحلة وكانت أول امرأة منهن أم موسى يوحي الله إليها: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾[1] . . .

وما الظن بامرأة تلقي بولدها في اليم؟ . . . إنها المؤمنة أم موسى، يوحي الله إليها، يرسم لها خطة النجاة لولدها، وهي فيما يرى الناس خطة الهلاك، ولكنها الواثقة بأن الذي يوحي إليها هو الله، فتطمئن وتتلقى وعده وبُشراه وهي المرأة . . .

وكانت المرأة الثانية في حياة موسى عليه السلام هي أخته التي وكَّلت إليها أمه متابعته في السير، ومعرفة اتجاهه، والعمل على إنقاذه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۝١١﴾[2] أي تتبعي أثره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا

---

(١) سورة القصص.

(٢) سورة القصص.

يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾[1] امرأة وابنتها تُديران خطة كيدٍ لطاغيةٍ جبار، فتنقذان فريسته من مخالبه، ويرده الله طائعاً إلى أمه على هذا النحو من الإعزاز والتكريم للوليد وأم الوليد.. وتلك هي المرأة . . .

وكانت المرأة الثالثة في حياة موسى عليه السلام هي امرأة الطاغية نفسه (امرأة فرعون) تنقذه من يده وقد همّ بقتله وتستغل عقمها وحرمانها من الولد وتملك على فرعون قلبه وعاطفته، قال تعالى: ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴿٩﴾[2] فأخذه من ناحية العاطفة لكي تنفتح أمامه أبواب الأمل، وما أقوى العاطفة والأمل، كسلاحين مؤثرين في القلوب القاسية.. وتلك هي المرأة...

وكانت المرأة الرابعة هي ابنة شعيب عليه السلام تلقته مع أختها وهو شريد طريد عند الماء، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾[3].

وسقى لهما فذهبتا إلى أبيهما وكان من فراسة إحداهما في موسى عليه السلام ما جعلها تعرف فيه مواطن العظمة وقوة الشخصية، وخلق الأمانة، والأمانة من الصفات الباطنة التي لا بد في إدراكها من عِشرة طويلة وتجارب متكررة، ولا يكفي في إدراكها اجتماع واحد ولا نظرة واحدة، بنت شعيب عليه السلام هذه لم تر موسى قط إلا حينما سقى لهما، وهذا

---

(١) سورة القصص.

(٢) سورة القصص.

(٣) سورة القصص.

القدر من الرؤية ليس من شأنه أن يمكن من معرفة أسرار النفوس ودخائلها، ولكنها ابنة شعيب عليه السلام وقد أوتيت من قوة الفراسة ما أدركت به أمانته وقوته فوصلت بينه وبين أبيها، وتعانق بهذا الوصل فرعان نبويان . . .

وفي ظل هذا التعانق نودي موسى عليه السلام، ﴿مِن شَٰطِيِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾[1] . . .

وبذلك تمت سلسلة من التدبير الإلهي تمهيداً لرسالة السماء في القضاء على البغي والطغيان، وكانت معظم حلقات السلسلة من صنع امرأة . .

---

(١) سورة القصص.

امرأة فرعون

(٦)

وإذا كان القرآن العظيم قد سجل للمرأة الثالثة في هذه السلسلة وهي امرأة فرعون عظيم موقفها في إنقاذ موسى عليه السلام من يد زوجها، فقد هَمَّ بقتله فإنه قد سجل لها وراء فضلها ذلك فضلاً في قوة إيمانها بربها، وشدة بغضها لزوجها. كانت في نظر الحكمة الإلهية المثل الأعلى للمؤمنين يرسم لهم للتأسي والتوجيه قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾[1].

امرأة تحت ملك، له قوته وجبروته ويقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[2] ويأبى دعوةَ التوحيد ويعمل على التنكيل بكل من خالف إرادته، امرأة زوجة هذا الملك القوي العتيد تستطيع أن تحتفظ بعقيدتها ولا تأخذها عنها، فتنةُ الرهبة أو الرغبة، وتتجه من أعماق قلبها إلى ربها أن يخلصها منه ومن عمله، وأن يخلصها من القوم الظالمين، فأية نفس عالية في ثياب هذه المرأة الكريمة، وإذا كان مثلها في النساء قليلاً فإن مثلها في الرجال كذلك قليل.

---

(١) سورة التحريم.

(٢) سورة النازعات.

هذا هو الوضع التاريخي القرآني للمرأة، قد حفظ لها مواهبها وأثرها في الحياة. . .

المرأة في عهد سليمان عليه السلام

(٧)

إذا كان عهد عيسى عليه السلام كما ذكرنا، وعهد موسى عليه السلام كذلك يذكران ما للمرأة من فضل في مرحلتين من مراحل التربية الإلهية للعالم، فإن عهد سليمان عليه السلام يُذكر هو الاخر،كما حدثنا القرآن الكريم في سورة النمل بامرأة ذات رأي وحزم وفراسة وقوة في استجلاء الحقائق الغامضة، وتدبير التخلص من المآزق الطارئة على وجه يبعدُ به الشر، ويعم به الخير تلك هي ملكة سبأ...

يصل إلى سليمان عليه السلام أن في سبأ من بلاد اليمن ملكاً كبيراً، وأن امرأة هي صاحبة السلطان على ذلك الملك، وأن لها عرشاً فيه من أنواع الزينة والجواهر يقصر دون الإحاطةِ بها العدُّ والتقدير، وأنها أوتيت من كل شيء، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، قال تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]...

يصل هذا النبأ إلى سليمان عليه السلام فيرسل إليها، داعياً لها ولقومها إلى التوحيد، مترقباً ما يكون منها إزاء دعوته، قال تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ

---

(١) سورة النمل.

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[1] فتقرؤه وتردده في نفسها، وهنا على ما يقص القرآن الكريم تظهر مواهبها وسداد رأيها في حسن التدبير وتقدير العواقب وسعة الحيلة في كشف ما لم تعرف من شئون سليمان عليه السلام.

لم تشأ أن تستبد بالأمر وأن تلقي أوامرها كما تريد، بل جمعت رجال دولتها وأهل مشورتها، وأعلمتهم مضمون الكتاب، وقَدَّرت ما في دعوته من سمو، فوصفته أولاً بالكرم، وأخذت مبدأ الشورى الذي هو أساس طبيعي لبقاء الملك وحفظه، وحينما أظهر لها رجالها العزة والاعتداد بقوتهم وأنهم طوع إرادتها، وصاحوا صيحة الحماس والاستعداد للدفاع ﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

ولكنها لم تُخدع بما أظهروا من قوة واستعداد عن الحقيقة التي تؤمن بها في نوايا الملوك المغيرين، والتي تؤمن بها نفوس الأتباع المروِّجين، فنظرت في الأمر بعين الفطنة وقالت لهم في وضوح وجلاء ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[3] وهكذا أخذت من الأحداث التاريخية التي تعلمها نتائج الحروب في تدمير البلاد والعباد، فلم تستسلم لما أظهروه من قوة واستعداد، ومثلت أمامها تلك الحقيقة التاريخية، وعرضت عليهم حلاً لتلك الأزمة التي فوجئت بها رأياً آخر قد تنجو به البلاد ويسلم العباد، ذلك هو أن تصانع سليمان عليه السلام وتخطب مودته، أو تأخذه من نفسه وترده عن هدفه في الهجوم عليها،

---

(١) سورة النمل.

(٢) سورة النمل.

(٣) سورة النمل.

فترسل إليه هدية لتنظر أثر هذه الهدية في نفسه وماذا يكون موقفه منها بعد أن تصل إليه، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۝﴾[1]...

وفيما روي أنها قالت: إن كان نبياً حقاً لا تصادف هديتنا مكاناً في قلبه، ولا تحول بينه وبين تبليغ رسالة ربه، وإن لم يكن نبياً، وكان ملكاً تهمه الدنيا وسلطانها، فسوف يفرح بها، ويعرض بزخرفها عن قتالنا...

قَدَّرت هذا وكان ما قدرت، وعلمت أن سليمان عليه السلام نبي ذو دعوة إلهية لا يرده عنها سلطان ولا زخرف، وأنه لا بد عامل على تبليغ دعوته، وتنفيذ أمر مولاه، وعلمت بجانب ذلك ومن رُسُلها إليه قوة سليمان عليه السلام وما لديه من جند وعتاد.

---

(١) سورة النمل.

صدق المرأة في الفراسة

(٨)

جاءها رسولها بهديتها يؤكد لها صدق تَنَبُّهِا وصحة رأيها، وقوة فراستها واستنتاجها، فلم يفرح سليمان عليه السلام بالهدية، ولم يعدل عن قتالهم، لأنه كما قدرت نبي مأمور بتبليغ رسالة ربه، وقد أفهمت رجالها ذلك وهي تفاوضهم في الأمر، وقد حمل لها رسولها أيضاً تَوعُّد سليمان عليه السلام لهم بجنود لا قِبل لهم بها، وأنه سيخرجهم بها من سبأ أذلة وهم صاغرون، وهكذا تنبأت لقومها وقالت لهم من أول الأمر ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾[1] . . .

علم سليمان عليه السلام أنها أجمعت رأيها على زيارته في عاصمة ملكه، فشيد لها صرحاً عظيماً ومرد أرضه بالزجاج، وأظهر لها ما لا عهد لليمن بمثله، وأراد أن يظهر لها دلائل القوة ونعم الله عليه، ما يملك عليها قلبها وإحساسها ويجعلها أمامه كالحالمة في نومها بما لا تراه عينها، فاعتزم أن يأتيها بعرشها الذي تعرفه، والذي كانت تجلس عليه في ملكها، فسأل جنوده عن قويٍّ يأتيه بعرشها قبل أن تأتي إليه، فتقدم إليه عفريت من الجن قائلاً ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾[2] فتقدم الذي عنده علم من

---

(١) سورة النمل.

(٢) سورة النمل.

الكتاب قائلاً ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ ﴾[1] وكان الأمر كما قال، ولمّا سئلت أهكذا عرشك؟... نظرت إليه وفكرت ثم قَرَّ رأيها وحرصها على الحزم في الرأي والدقة في الحكم، وعدم التورط في النفي القاطع أو الإثبات القاطع على أن تقول ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾[2]...

فهذه مثُل تاريخية أبرزها القرآن الكريم، وتحدث بها في عهود الإنسانية الأولى فيما يختص بحسن سياسة المرأة، ودقة استجلائها للحقائق، وكان حديثه عنها تسجيلاً لمقتضيات الإنسانية البريئة التي لم يتصل بها ما يقطع عنها آثارها، وأنها ما دامت سليمة مما يحجبها أو يضعفها أو يقطعها، فهي مقتضيات متقاربة في الرجل والمرأة إن لم تكن متساوية ...

فإن شاءت أن تكون كأخيها الرجل، وجب عليها أن تقوم بحق إنسانيتها، وتعنى بواجبها كإنسان له هدف في الحياة الجادة العاملة البعيدة عن مظاهر الخداع والتلبيس، وإن شاءت أن تظل أنثى بكل معاني الكلمة ولوازمها، فإن واجب الرأي العام الإنساني أن يردها إلى صوابها، وأن يضع أمامها العقبات حتى لا تستخدم زخرفها وبريقها وعري سيقانها وذرعانها في التنكيل بإنسانية الرجل وزلولته عن مستواه، فينحدر إلى هوة يلتقي معها في قرارها السحيق، وعندئذ تفقد الإنسانية عنصريها ...

فلتنظر المرأة أين تضع نفسها، ولينظر الرجل كيف يُقوِّم أمره....

---

(١) سورة النمل.

(٢) سورة النمل.

المرأة في البعثة المحمدية

(٩)

حدثنا القرآن الكريم عن جملة من النساء اللاتي كان لهن شأن في عهود الرسالات الإلهية الأولى وذكر عن عهد عيسى عليه السلام أمه مريم البتول وجدته امرأة عمران . . .

وذكر عن عهد موسى عليه السلام أمه وأخته وامرأة فرعون وبنت شعيب عليه السلام التي صارت فيما بعد زوجاً له، تلقى في جوها رسالة ربه. . .

وذكر عن عهد سليمان عليه السلام ملكة سبأ التي ساست ملكها على أساس من الشورى والحزم وحسن التدبير، حتى أنقذت شعبها من ضلال الشرك والوثنية، وبَصَّرته بالإيمان والتوحيد، وأنقذت بلادها من حرب التدمير والتخريب، والتقت مع سليمان في دعوته عن يقين واطمئنان، وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

وإذا كان القرآن الكريم قد حدثنا عن مثل هذه المُثل من النساء في عهود النبوة الأولى، ففي تاريخ النبوة المحمدية، أمثلة كثيرة برزت فيها مواهب المرأة على هذا النحو ... في نواحي العقل وحسن التدبير والشجاعة والكرم والرواية والعلم. . . وحسبنا من هذا التاريخ المليء بفضليات النساء ذوات الأثر الخالد أن نذكر هنا سيدة كان لها الفضل الأكبر والأثر الأعظم في تثبيت دعائم الرسالة المحمدية، وفي شد أزر

---

(١) سورة النمل.

الرسول ﷺ وتثبيت قلبه، وتهدئة خاطره وطرد عوامل القلق، والحرج التي كانت تساور نفسه في بعض فتراته الأولى، وتلك هي السيدة «خديجة بنت خويلد» التي لقبت في قومها وعشيرتها (بالطاهرة) . .

كانت أعقل العقائل وفضلى الفواضل، وقد أدركت بفراستها وبُعد نظرها ما ينتظر محمداً من مستقبل كريم، وشأن إلهي عظيم فوصلت حبلها بحبله، وألقت بمالها بين يديه، ثم خلطت نفسها بنفسه، وكان ﷺ يتعبد في غار حراء، ويقضي فيه الليالي ذوات العدد منقطعاً عن أهله ونفسه، متفرغاً لربه ذاكراً لالائه ونعمائه. . .

وما كانت خديجة في هذه الليالي بالمرأة التي تدفعها غايتها الشخصية، أو منزلتها المالية إلى الوقوف في وجه زوجها، وتحويله عن الغار إلى البيت، وعن مناجاة ربه إلى مناجاته لها، بل كانت على العكس تزوده وتطعمه وتعينه وتقويه!!!، وكأنها بذلك كله وُكِّلَ إليها أمره في إعداده، وكلفت شأنه في تهيئته. . .

وبينما هو غارق في بحار الاتصال الإلهي إذ جاءه الوحي، ورأى من أمره ما رأى، فعاد إليها خائفاً يرجف فؤاده، وقص عليها ما رأى، وهنا تجلى منها سداد الرأي وعظم القلب ورجاحة العقل، وصحة الاستنتاج، موقف لو أتيح بين ولد ووالده لذابت نفس الوالد إشفاقاً على الولد ولضرب حوله بسور يحول بينه وبين ما يثير عليه الرجفة التي يمتقع بها لونه، ويضطرب منها فؤاده، غير ذاكر ولا مقدر أهمية النتائج . . .

ولكن المرأة برجاحة عقلها وشدة حزمها وإيمانها بوحي نفسها، قد أقبلت عليه تمسح وجهه وتذكي روحه وتبسط أمامه الأمل الواسع، وتصور له العاقبة الطيبة، وتبعد عن قلبه كل بواعث الخوف والاضطراب (كلا والله

ما يخزيك الله أبدا إنك لَتصلُ الرحم وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق) تلكم الأخلاق التي تتمثل فيمن يتصل من الناس بصاحبها، في الرحمة والنجدة، وبُعْدِ الهمة في إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج، وصلة القريب . . .

كل ذلك في دائرة من الحق والكمال الإنساني، والشعور بما يرضي الله بعيداً عما يرضي النفس والهوى . . . . ثم كانت الرسالة الإلهية العامة الخالدة، كانت هذه الرسالة لمحمد ﷺ وشاركت في تلقيها واحتضانها والإعانة عليها، والوقوف بجانبها حتى خرجت سليمة قوية زوجه الطاهرة (خديجة بنت خويلد). . .

ومن هذا الحين بدت المرأة عنصراً فعالاً قوياً في تركيز المرحلة الإلهية الأخيرة في تربية العالم والنهوض بالإنسانية، على يد محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فشاركت المرأة في الدعوة وشاركت في الهجرة، وشاركت في الابتلاء، وشاركت في الرأي، وشاركت في الغزو، وشاركت في العلم، وشاركت في الرواية، وشاركت في الاجتهاد، وشاركت في تأمين الأعداء، شاركت في كل ذلك، وكان لها في كل عصر من عصور الرسالة الزاهرة مشاركة وأثر، لم تكن إلا عنصراً من عناصر الدعوة. عليها ولها مثل ما على أخيها الرجل من واجبات وماله من حقوق. . .

وإذا كان للسيدة خديجة كما قص علينا التاريخ الصادق فضل تركيز المرحلة الأخيرة من مراحل التربية الإلهية العامة التي بدأت على يد محمد بن عبد الله، فإن التاريخ النبوي يحدثنا كذلك عما كان للمرأة من فضل في حفظ كيان الجماعة الإسلامية ووقايتها من التدهور في أزمة داخلية أوقدت نارها بين المسلمين وبين قائدهم الأكبر ﷺ شروط الصلح التي تم عليها عقد الهدنة في رحلة الحديبية. إن للزعيمة السيدة زوج

رسول الله ﷺ أم سلمة رضي الله عنها وأرضاها، يدخل عليها الرسول في هذا الموقف الحرج، وفي الجيش أبو بكر وعمر وأبطال المؤمنين يدخل عليها صائحاً: هلك المسلمون يا أم سلمة، أمرتُهم فلم يمتثلوا، وفي رويَّة وحزم، قالت أم سلمة: اعذرهم يا رسول الله، فقد حَمَّلت نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجعوا دون فتح ولا حج فهم لذلك مكروبون . .

والرأي أن تخرج ولا تلوي على أحد فتبدأ بما تريد، فإذا رأوك فعلت تبعوك وعلموا أن الأمر حتم لا هوادة فيه، وهم مؤمنون بك مُحِبُّوك، فانشرح صدر النبي ﷺ واستقر قلبه واطمأن إلى رأيها الحازم، وقام من فوره إلى هديه فنحره ودعا بالحلاق فحلق رأسه، وصدق رأي أم سلمة فلم يكد المسلمون يرون النبي ﷺ يحلق ويذبح حتى تواثبوا إلى الهدي فنحروا، وعلى رؤوسهم فحلقوا، ثم رجعوا إلى المدينة موفين بعهدهم مؤمنين بحكمة نبيهم . . .

انتظم الشمل وسار جند الله برأي امرأة في سبيل الله حتى تمت كلمة الله، فتلك هي المرأة الناشئة في حضانة القدس والطهر، لم تبخل عليها الحكمة الإلهية بما تهيأت لها نفسها من رأي حكيم وفكر سديد كان له في العالمين أثره، فهل تستطيع أن تعرف امرأةُ اليوم نزعة أختها الماضية، وتسير في طريقها فتنعم بما نعمت به،ويكون لها من الخلود والذكر ما كان لها. . .

المرأة عند الأمم القديمة

(١٠)

أكثر الأمم القديمة حضارة اليونان جعلوا المرأة من سقط المتاع، فكانت تباع وتشترى في الأسواق، وقد سموها رجساً من الشيطان، وحرموا عليها كل شيء سوى تدبير البيت وتربية الأطفال. . . . وجاء في شرائع الهند (أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار خير من المرأة). . .

وفي روما اجتمع مجمع كبير، وبحث في شؤون المرأة، فقرر أنها كائن لا نفس له، وأنها لن ترث الحياة الأخروية، وأنها رجس يجب أن لا تأكل اللحم، وأن لا تضحك بل ولا أن تتكلم، وعليها أن تمضي أوقاتها في الصلاة والعبادة والخدمة، ولأجل أن يمنعوها الكلام جعلوا على فمها قفلاً من حديد. هذا غير العقوبات البدنية التي كانت تعرض لها المرأة باعتبار أنها أداة لإغواء يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب. . .

أما في فرنسا فقد عقد سنة ٥٨٦م اجتماع في بعض ولاياتها دار فيه البحث عن المرأة: أَتُعَدُّ إنساناً أم غير إنسان؟ وكان ختام البحث أن قرر المجمع أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل . . .

أما في إنجلترا فقد أصدر الملك هنري الثامن أمراً بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء، كما أن النساء كن طبقاً للقانون الإنجليزي العام حوالي سنة ١٨٥٠م غير معدودات من الموطنين، ولم يكن لهن حقوق شخصية، ولا حق لهن في تملك ملابسهن، ولا في الأموال التي

يكسبنها بعرق الجبين . . .

أما في بلاد العرب وقبل بعثة محمد ﷺ فقد كانت المرأة ممتهنة في كثير من أحوالها، وقد جاء الإسلام، والعالم كما وصفنا، فقام بتحرير المرأة مما وقع عليها من حيف وظلم، ورفعها إلى مكانة عالية لم تصل إليها في آخر تطورات المدنية . .

ومسؤولية المرأة مستقلة عن مسؤولية الرجل، فلا يؤثر عليها وهي صالحةٌ، فساد الرجل وطغيانه، ولا ينفعها وهي طالحة صلاح الرجل وتقواه، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾[1] . . .

كما إن الإسلام ساوى بين المرأة والرجل في حق المبايعة، فقد كان النبي ﷺ يبايع الرجال على السمع والطاعة والقيام بحدود الشريعة، وكذلك بايع النساء قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾[2] . . .

بينما نرى بعض الشعوب تحتقر المرأة، فلا تعتبرها أهلاً للاشتراك مع الرجال في النشاط الاجتماعي، جاء الإسلام فأثبت أنهن والرجال سواء، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

---

(١) سورة التحريم.

(٢) سورة الممتحنة.

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴿٧١﴾ ﴾[1] ففي هذه الآية إثبات ولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم لبعض، والولاية عبارة عن تعاونهم وتناصرهم لما فيه خيرهم، كما أن الولاية أثبتت للمرأة حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالأعمال الصالحة، وهذا برهان واضح في إعطاء المرأة حقها من النشاط الاجتماعي . . .

كان بعض العرب يئد البنات فجاء الإسلام بتحريم وأدهن، وبذلك أعطى المرأة حق الحياة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[3] . . .

وكانت العرب لا تورث النساء ولا الصبيان من أبناء الميت، وإنما يورثون من يلاقي العدو ويقاتل في الحرب، فشرع الإسلام توريث المرأة وبين حقوقها في الإرث زوجاً وأماً وأختاً وبنتاً قال تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾[4] . . .

وكانت العرب ترث النساء كرهاً، وذلك بأن يجيء الوارث ويلقي ثوبه على زوجة مُوَرِّثه ثم يقول: ورثتها كما ورثت ماله، فيكون أحق بها من

---

(١) سورة التوبة.

(٢) سورة النحل.

(٣) سورة الإسراء.

(٤) سورة النساء.

نفسها، إن شاء زوّجها واستوفى مهرها لنفسه، أو حرم عليها الزواج طمعاً في أن تفدي نفسها بمال أو تموت فيرثها... فجاء الإسلام محرماً، ذلك قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾[1]...

كما أن الإسلام حرم جميع أنواع الزواج الفاسد الذي كان عند كثير من الشعوب، ولا يزال بعضه إلى اليوم في البلاد التي تغلب عليها الهمجية....

(١) سورة النساء.

نظرة القرآن الكريم إلى الزواج

(١١)

ما هو تعريف الزواج قبل أن يعرفه القرآن الكريم؟

هل هو صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة؟

هل هو وسيلة من وسائل الضرورة لإرضاء مطالب الجسد والاستراحة من غوايته الشيطانية؟

كل هذا وأشباهه ما تصورته المجتمعات والعقائد من صور الزواج قبل مجيء القرآن...

ولكن الزواج في القرآن الكريم هو الزواج الإنساني في وضعه الصحيح من وجهة المجتمع ومن وجهة الأفراد، فهو واجب اجتماعي من وجهة المجتمع للمحافظة على النوع الإنساني، وسكن نفساني من وجهة الفرد، وسبيل مودة ورحمة بين الرجال والنساء، فكان خطاب القرآن الكريم في تدبير الزواج موجهاً إلى الأفراد لتيسيره، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۝﴾[1] فهذه الآية خطاب للأولياء وتعم غيرهم مطلقاً بأن يزوجوا العزاب من النساء والرجال، وأن لا يكون فقرهم داعياً للحيلولة دون تزويجهم لأن الله قد تكفل بإغنائهم من فضله، أما الفقير المدقع العاجز عن الإنفاق فإن الله

---

(١) سورة النور.

يأمره بالعفة إلى أن يرزقه الله المال الذي يمكنه من الزواج، قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[1]...

والزواج في الإسلام عهد وميثاق بين الزوجين قال تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[2] فهذه الآية تدل على أن النساء أخذن من الرجال ميثاقاً غليظا وهو ميثاق الزواج، فهو عهد بين الرجل والمرأة يلتزم كل منهما بموجبه بواجبات نحو الآخر، ولهذا التعبير: ﴿ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ قيمته في الإيحاء بمعاني الحفظ والمودة والرحمة، فهو ليس عقد تمليك كعقد البيع والإجارة، أو نوعاً من الاسترقاق...

والعلاقة بين الرجال والنساء في الزواج علاقة (سكن) تستريح فيها النفوس وتتصل بها المودة والرحمة قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]، فهذه الآية تنبه الرجل والمرأة إلى أن من أعظم دلائل قدرة الله وآياته كرمه أن خلق للرجل زوجة من جنسه ليسكن إليها، والسكون النفسي المذكور هو تعبير بليغ عن شعور الشوق والرغبة الذي يشعر به كل منهما نحو الآخر، والذي يزول به أعظم اضطراب فطري في القلب والعقل، ولا ترتاح النفس وتطمئن في سريرتها بدونه، كذلك من دلائل كرمه التي حدثتنا بها الاية أنه جعل بين الزوجين مودة ورحمة وعطفاً ثابتين لا يبليان كما تبلى مودة غير الزوجين ممن ألفت بينهما الشهوات...

(١) سورة النور.

(٢) سورة النساء.

(٣) سورة الروم.

وفي هذا المعنى ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[1] فهذه الآية شبهت كلاً من الزوجين باللباس لأن كلاً منهما يستر الآخر، فحاجة كل منهما إلى صاحبه كحاجته إلى الملبس، فإن يكن الملبس لستر معايب الجسم ولحفظه من عاديات الأذى وللتجمل والزينة، فكل من الزوجين لصاحبه كذلك، يحفظ عليه شرفه وعرضه ويوفر له راحته وصحته،وسكون الزوج إلى زوجه أقوى دعائم التناسب بينهما في التربية والأخلاق، وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾[2].

فالقسم الأول من الآية معناه: إن الخبيثات من النساء لا يستأهلن من الأزواج إلا الخبيثين، فمن كرمت نفسه من الرجال وضَنَّ بمروءته عن مواطن الذلة والهوان فبعيد عليه أن يجنح إلى خبيثة ساقطة يتخذها زوجة له، وكذلك الخبيثون من الرجال لا يستحقون إلا خبائث النساء، فمن سَمَتْ بها العزة وامتزج بها الشمم، تحاشت أن تجعل نفسها زوجاً لرجل ساقط المروءة وضيع النفس، فإذا امتنع كل ذي كرامة من الجانبين عن الاتصال بالخبيث، تهيأ له أن يكون مع من يدانيه شرفاً وطهراً ويناسبه أدباً وخلقاً، وهذا ما تهتف به الآية في قسمها الثاني ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فهنا أشادت بالنساء الطيبات إغراءً للرجال باختيارهن، وكذلك أشادت بالطيبين إغراءً للنساء الطيبات باختيارهم أزواجاً . . .

والسكون الدائم الذي يثمره التناسب في الأخلاق هو وليد التربية الدينية الصحيحة، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «تُنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» فهذه أهم

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة النور.

الأسباب التي يلتمسها الناس في الخطوبة، والرسول الكريم ﷺ يقر الناس عليها، غير أنه لما كان الدين عند الناس أحياناً في الموضع الأخير، فعلى الخاطب أن يفضل ذات الدين على غيرها، وأن يلتفت إلى الدين قبل سواه فيمن يريدها زوجة له، وليس القصد من الدين أن تصلي المرأة أو تصوم مثلاً وكفى، ولو كانت سيئة الطباع، لا بل التي هَذَّبَ الدينُ أخلاقها، وحفظ عليها حياتها واستمدت من روحه وآدابه تربيتها.

واختيار الزوجات مقصور على النساء اللاتي أباح الإسلام الزواج منهن لا المحرمات، قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1] . . .

---

(١) سورة النساء.

أصول الزواج في الإسلام

(١٢)

الزواج في الإسلام عقد كسائر العقود، لا يشترط فيه حضور رجال الدين، ولا يشترط فيه أن يقام باحتفال ديني كما يحدث في أكثر الأديان، فالإسلام يعتبر الزواج ميثاقاً عقد على أساس التفاهم المتبادل بين الطرفين الرجل والمرأة. . .

وشرطه الإيجاب والقبول وحضور شاهدين، ولهذا فلو أن خاطباً ومخطوبته أعلنا إرادتهما بتراضيهما في الاقتران أمام شاهدين معتبرين شرعاً، ولم يكن ثمة مانع من زواجهما تم عقد الزواج بينهما، سواء أكان ذلك أمام مأذون أو قاض أو على يد موظف الحكومة المكلف بكتابة عقد الزواج، والزواج في هذا يعتبر مقبولاً من الوجهة الدينية، بينما الشريعة الإسلامية تعتبر الزواج من المسائل الدينية على معنى أنه يستمد قواعده من الدين، وأن الدين يحض عليه، وفي هذا يقول الرسول الكريم ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أَغضُّ للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ومعنى الباءة: التكاليف اللازمة للزواج من إعداد البيت والقدرة على الانفاق، ومعنى الوجاء من وجأ بمعنى: قطع، أي أن الصوم قاطع للشهوة لمن لم يستطع الزواج.

الخطبة: ويسبق الزواجَ الخطبةُ وهي طلب الرجل امرأة معينة للتزوج بها، والتقدم إليها وإلى ذويها ببيان حاله، ومفاوضتهم في أمر العقد، ومطالبه ومطالبهم بشأنه، والأولى أن يرى الخاطب مخطوبته، وترى

المخطوبة خاطبها حتى تأتلف القلوب وتتواد ولا تندم بعد فوات الأوان، روي عن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال له النبي ﷺ: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» ومعنى يؤدم أي: تحصل الموافقة والملائمة.

كما يجب أن يحصل الولي على موافقة المخطوبة إذا كانت بالغة، قال رسول الله ﷺ: «الثَّيِّبُ أحقُّ بنفسها من وليها، والبكر تُستأمر وإذنها السكوت»... ولكل من الخاطب والمخطوبة العدول عن الخطبة، وإذا عدل الخاطب عن خطيبته أو ردت المخطوبة خاطبها ترد الهدايا كالحلي وغيرها إلى مهديها إن كانت قائمة، أما إذا كانت كالطعام فلا يرد بدله شيء، وفي عهد الخطبة لا يجوز للخاطب أن يخلو بمخطوبته، وهو بالنسبة إليها كغيره من الأجانب لأن الخطبة وَعْدٌ بالزواج وليست الزواج...

الكفاءة: ويشترط كفاءة الرجل لمن يريد أن يتزوجها، والكفاءة في أصل معناها في اللغة: المساواة، والكفاءة تكون في النسب والمال وشرف العلم فوق شرف النسب، والكفاءة في المال أن يكون قادراً على المهر والنفقة، فالغنى ليس بشرط في الكفاءة بل مطلق القدرة على الإنفاق هو الشرط المعتبر، ومن حق الولي أن يطلب فسخ الزواج إذا تهاونت المرأة في شرط الكفاءة...

المهر: وأوجب الإسلام على الرجل عند الزواج أن يبذل للزوجة مهراً وقد سماه الله صداقاً قال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ ﴾[1] وقد كان العرب لا يحترمون حق ملكية الزوجات لمهورهن، فوليُّها إذا قبض مهرها لا يعطيه لها، وإذا أعطاه لها

---

(١) سورة النساء.

تصرف فيه زوجها بدون إذنها، فقضى الإسلام على هذا وأمر بأن تؤتى الزوجات مهورهن، وأكدت الآية بأن وصفت الإعطاء بأن يكون نحلة أي إعطاءً عن طيبِ نفس، واعتقادٍ بأنه من حقها، وبأنه لا يباح لولي أو زوج أن ينتفع بشيء منه إلا إذا طابت نفس الزوجة، وهذا شأن كل مالك محترم حقه في ماله، وبذلك قرر القرآن الكريم للمرأة حق الملكية الصحيحة الخالصة من رقابة الزوج وهيمنته...

وقد صور بعض خصوم الإسلام المرأة المسلمة فيما يتعلق بتشريع المهر بالمرأة القابلة للبيع والشراء، ولم يفهموا الحكمة من المهر بأنه نصيب الرجل في بناء الحياة البيتية، وأن هذا الالتزام من جانبه وحده، لما فرض له من قوامته على المرأة، ولما فرض فيه بحكم الطبيعة من أنه المكافح في الحياة والمسئول عن توفير أسباب الحياة ...

فالمرأة في أوروبا بحكم العرف، عليها أن تؤسس لخاطبها بيت الأسرة المقبلة، التي ستتكون منهما مبدئياً، وهي التي أطلقوا عليها كلمة (دوطة) فكونُ المرأة تتحمل تأسيس الأسرة، وهي دون الرجل في القدرة على المكافحة في الحياة قلبٌ للوضع الطبيعي ...

والمهر الذي أوجبه الإسلام لم تحدد قيمته، ويختلف بقدرة الرجل المالية أو اتفاق الزوجين، حتى إن رجلاً فقيراً شكا للرسول بأنه لا يملك قيمة المهر الذي جرت به العادة فقال ﷺ: «التمس ولو خاتماً من حديد»... ولا يتعين دفع كامل المهر حين العقد، بل يجوز أن يكون مؤجلاً كله أو بعضه أو مقسطاً لأوقات يتفق عليها العاقدان، وللزوجة الرشيدة بعد العقد أن تبرى الزوج منه أو من بعضه لأنه حقها فلها أن تتصرف فيه بالإبراء أو الهبة كما تشاء...

أما العادة السارية الان عند بعض المسلمين من اشتراط المهور الفاحشة لبناتهم، والتي سببت إحجام الشباب عن الزواج، لعدم استطاعتهم تلبية تلك النفقات الباهظة، التي لا يستطيع تأديتها صاحب الدخل المحدود فهي مما يخالف روح القرآن الكريم الذي ورد فيه قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾[1] وقوله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» فقد ذكر ﷺ الخلق والدين ولم يذكر المال، ونبهنا إلى أننا إذا لم نفعل ذلك تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، وهذا ما نشاهده اليوم بين الشباب الذي انغمس في المحرمات لعدم قدرته تلبية عادات المجتمع المخالفة لروح الإسلام...

(١) سورة النور.

مساواة المرأة بالرجل في الحياة الزوجية

(١٣)

البيت هو نواة المجتمع البشري، وتقدر سعادة البشر في الأحوال العادية بالسعادة التي ترفرف على البيت، والاستقرار المنزلي دليل استقرار المجتمع ورقيه، ولما كانت الأسرة تتألف من الرجل والمرأة، فإنه يتوقف - على مقدار فهمهما الصحيح لمركزهما ولعلاقة كل منهما بالآخر- الاستقرار والهناءة..

وقد ساوى القرآن الكريم بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف، مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل، قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴾[1] هذه آية جليلة جمعت في إيجازها ما لا يؤدى بالتفصيل إلا في سفر كبير، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق.

فهذه الآية تعطي الرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته في جميع الشؤون والأحوال، فإذا هَمَّ بمطالبتها بأمر من الأمور، تذكَّرَ أنه يجب عليه معاملته بإزائها، وليس من العدل أن يتحكم أحد الجنسين بالآخر ويتخذه عبداً يستذله ويستخدمه في مصالحه، لا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة، التي لا تكون إلا باحترام كل من الزوجين الاخر والقيام بحقوقه.

---

(١) سورة البقرة.

ولكن هذه الآية استثنت أمراً واحداً عبر عنه القرآن الكريم: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۝٢٢٨﴾[1] وهذه الدرجة مفسرة بآية أخرى وردت في القرآن الكريم: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۝٣٤﴾[2] إذن فحق القوامة مستمد من التفوق الطبيعي في استعداد الرجل، ومستمد كذلك من نهوض الرجل بأعباء المجتمع.... وتكاليف الحياة البيتية، فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة.

ولو كانت مثله في القدرة العقلية والجسدية لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسراً في فترة الحمل والرضاعة.... وهو الكفيل بتدبير معاشها وتوفير الوقت لها في المنزل لتربية الأبناء، وتيسير أسباب الراحة والطمأنينة البيتية، هذا وإن المرأة تقضي أسبوعاً من كل شهر في حالة (اختلال المزاج).

كما أن الحياة الزوجية هي حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس لأن المجتمعين لا بد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الأمور، ولا تقوم مصلحتهم إلا إذ كان هناك رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف لئلا يعمل كلٌّ ضد الآخر، فتنفصم عروة الوحدة الجامعة، ويختل النظام، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوته وماله...

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة النساء.

معاملة الزوجات

(١٤)

أما معاملة الزوجات، فالشريعة الإسلامية تحض على معاملة الزوجة معاملة طيبة حسنة، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴿٢٣١﴾﴾[٢]، وعلى الزوج أن يبسط كفه بالإنفاق غير مسرف ولا مقتر، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴿٧﴾﴾[٣].

وفي حالة تمرد المرأة يجوز للرجل أن يُقَوِّمَ خطأ امرأته بما نصت عليه الاية الكريمة قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾[٤]، فهذه الآية الكريمة تنص على أن الرجل إذا آنس من المرأة ما يخشى أن يؤول إلى الترفع وعدم القيام بحقوق الزوجية فعليه أولاً أن يبدأ بالوعظ الذي يرى أنه يؤثر في نفسها، والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة وحكمة الرجل.

---

(١) سورة النساء.

(٢) سورة البقرة.

(٣) سورة الطلاق.

(٤) سورة النساء.

حتى إذا لم ينفع الوعظ عمل بعقوبة الهجر في المضاجع، والحكمة من عقوبة الهجر في المضاجع أنها عقوبة نفسية تمس المرأة في الصميم، لا على أنها حرمان من لذة الجسد لبضعة أيام أو أسابيع (فالمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنةٌ له وأنها غالبته بفتنتها، وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها، فليكن له ما شاء من قوة، فلها هي ما تشاء من سحر وفتنة، وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم ... فإذا قاربت الرجل مضاجعة له، وهي في أشد حالاتها إغراء بالفتنة، ثم لم يبال بها ولم يؤخذ بسحرها فما الذي يقع في وقرها... الذي يقع في وقرها أن تشك في صميم أنوثتها، وأن ترى الرجل في أقدر حالاته جديراً بهيبتها وإذعانها، فهو مالك أمره إلى جانبها، وهي إلى جانبه لا تملك شيئاً إلا أن تثوب إلى التسليم، فهذه العقوبة أبطال لعصيان، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل بإحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة مَنْ يعصيه).

وليس معنى إباحة الضرب - إذا لم ينفع الوعظ والهجر في المضجع- إباحته في كل حالة، ومع كل امرأة، فقد كان رسول الله ﷺ وهو أول المؤتمرين بأوامر القرآن الكريم يكره الضرب ويعيبه، ويقول في حديثه المأثور : «لَنْ يضربَ خيارُكم» ويقول ﷺ: «أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره».

كما أنه روي أن رسول الله ﷺ لم يضرب زوجة قط... واشترط أن يكون الضرب خفيفاً غير مؤذ، كما أن إباحته يحمل على حال الضرورة، وحين لا يجد الزوج مفراً من التأديب، فيكون التأديب بالضرب حينئذ خيراً من التأديب بالطلاق، لأن ضرر الضرب يقتصر أمره على المرأة، أما ضرر الطلاق فيتعداها إلى أولادها ومن يؤذيهم طلاقها من أهلها.

وإنما يباح الضرب لأن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره، فهؤلاء النساء الناشزات - لا يكرهنه ولا يسترذلنه - وليس من الضروري أن يكن من أولئك العصبيات المريضات اللاتي يشتهين الضرب كما يشتهي بعض المرضى ألوان العذاب.

الحجاب ورأي الإسلام فيه

(١٥)

أما مسألة الحجاب التي يتعرض لها كثير من كتاب الغرب بالطعن، فإن القرآن الكريم لم يتعرض لمعالجتها إلا بما يصون الأخلاق والأعراض، فشهوات الجنس أخطر من كثيرٍ من الأضرار التي تُسنُّ القوانين لمحاربتها بالحد من الحرية في بعض الأحوال، ونصوص القرآن الكريم التي تعرضت للحجاب هي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾[1].

ومعنى يضربن بخمرهن على جيوبهن، أي: يلقين على صدورهن غطاء ليسترنها عن أعين الناظرين، والجيب المقصود في الآية الكريمة هو فتحةُ الثوب والقميص الذي ترتديه المرأة ... ومعنى غير أولي الإربة من الرجال هم الذين لا رغبة لهم في النساء، كالشيوخ الهرمين وذوى العلة

---

(١) سورة النور.

الطبيعية، ومعنى لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يُخفين من زينتهن : هذا ما كان يفعله بعض نساء العرب في الجاهلية لتنبيه السامع إلى ما بأرجلهن من الخلاخيل افتخاراً بها وتشويقاً إليهن.

أمر الله المؤمنين والمؤمنات في هاتين الايتين بالغض من البصر، وغَضُّ البصر هو حفظه، وعدم إرساله فيما تأمر به الشهوة، وليس المراد أن يكون الإنسان مطرقاً رأسه فلا ينظر رجل إلى امرأة ولا امرأة إلى رجل قط، لأن هذا مما يشق بل لا يستطاع، ولذلك أمر الله بغض منه، ومِنْ للتبعيض، وهو يحصل بعدم استدامة النظر إلى ما يحرم وما يثير الشهوة، والمراد بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴿٢٣٢﴾﴾[1]، أزكى تأتي بمعنى النماء، ويكون المعنى: أن غض البصر عن الشهوات ينمي مواهب الإنسان، ويصرف نشاطه نحو الأعمال المفيدة التي تحقق أعظم النفع للأمة في المستقبل، ولا شك أن الذي يسترسل ببصره نحو الشهوات تصرفه عن معالي الأمور وتورطه في محاذير لا تحمد عقباها.

ومعنى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي: الوجه والكفين، فإنه يجوز كشفهما أمام الرجال، وذلك عند أمن الفتنة بخلاف الشعر فإنه لا يجوز كشفه، وعلى هذا ذهب كثير من فقهاء المسلمين.

فمذهب الحنفية والرأي الثاني للشافعية والقول المفتى به عند المالكية: أنه يباح للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في الطرقات وأمام الرجال الأجانب إذا أمنت الفتنة، يرى أصحاب الرأي أن المراد بالآية الكريمة: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، نهى النساء عن إبداء شيء من أعضائهن إلا الأعضاء الظاهرة بعادتها وهي الوجه والكفان، وقد قيدوا هذه

---

(١) سورة البقرة.

الإباحة بحالة أمن الفتنة.

أما إذا كان كشف الوجه يثير الفتنة ويغري بالمرأة مرضى القلوب ومن لا خُلُقَ له فإنه يجب عليها ستره كما تستر بقية أعضائها . . . وتقول لجنة الفتوى التابعة لمشيخة الأزهر (لجنة الفتوى ترى تمشياً مع القاعدتين الإسلاميتين العظميتين) - يسر الدين وسماحته وسد ذرائع الفساد - ترجيح الرأي القائل بأن وجه المرأة وكفيها ليست من العورة، فلا جناح عليها أن تكشف شيئاً منها أمام الرجال الأجانب دفعاً للحرج والمشقة في معاملاتها العامة والخاصة، وإنه إذا خيفت الفتنة يجب عليها ستر جميع بدنها سداً لذريعة الفساد . . .

واللجنة تقرر في الوقت نفسه أن كشف الوجه واليدين مزيَّنة بالأصباغ المعروفة، نوعٌ من التبرج الذي يمقته الشرع ويشدد النكير عليه، وإن الكشف المباح إنما هو للوجه واليدين على طبيعتها التي خلقها الله عليها خالية من الأصباغ والألوان، وهي تناشد المسلمين حرصاً على سعادتهم أن يهيمنوا بهذا الأدب الإسلامي الكريم على نسائهم وفتياتهم، ويشعروا بأن مخالفة هذا الأدب توجب غضب الله وسخطه، فضلاً عن أنها تدهور كيان الأسرة.

وخلاصة ما تقدم أن القرآن الكريم نهى المرأة أن تخرج بزينة جسدها، لتتصدى للغواية بين الغرباء، وهي في حِلٍّ بعد ذلك أن تلقى من تشاء ممن تجمعها بهم مجالس الأسرة من الرجال الذين نصت عليهم الآية الكريمة، ولا يحلون لها ولا يتأثرون بفتنتها، ولعل البعض يدرك حكمة القرآن في النهي عن التبرج، وإن أخطار الشهوات الجنسية شيء يجب أن يتعرض لها الدين بالعلاج، والقرآن كما رأينا وصف أنجع العلاج لذلك.

أما ما استحدثه المسلمون من المبالغة في حجب النساء، فهو من باب سد ذريعة الفساد، فقد أجمع المسلمون على شرعية صلاة النساء وراء الرجال في المساجد مكشوفات الوجوه والأكف، وأجمعوا على جواز إحرام النساء بالحج والعمرة والطواف بالبيت الحرام بمكة المكرمة والوقوف بعرفة مكشوفات الوجوه والأكف أيضاً، وقد كن يفعلن كذلك على مشهد من الرجال في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.

تعدد الزوجات في الإسلام

(١٦)

صدرت كتابات كثيرة في أوربا من جانب المستشرقين والاجتماعيين في مسألة تعدد الزوجات في الإسلام، كلها ترمي إلى استهجان هذه العادة، وتنصح المسلمين بضرورة الإقلاع عنها، بل منهم من علق ارتقاء المسلمين من الناحية الاجتماعية على إلغائها.

والحق أن تعدد الزوجات لم يوجده الإسلام، بل كان عند أغلب الشرائع، وكان العرب في جاهليتهم من أكثر الأمم تعدداً للزوجات، فرأى الإسلام أن يتوسط في الأمر، فجعل للتعدد حداً لا يتعداه، وأحاطه بشروط تنفي ما ينجم عنه من أضرار كما سنبينه فيما بعد:

التعدد لحماية المرأة:

والإسلام أباح تعدد الزوجات، ولم يفرضه كما يبدو إلى أذهان المتكلمين في هذا الموضوع من الغربيين، نعم أقر الإسلام مبدأ التعدد، لأنه يرمي إلى هدف بعيد الغور في الإصلاح الاجتماعي لا يدركه إلا نافذ البصيرة في العالم، وهو أنه علم الله أن من الرجال من لا يمكن أن يردعهم عن المضي في شهواتهم رادع، فأباح لهم التعدد لا ليجد هؤلاء مخرجاً من الحرج فقط، ولكن ليحمي المرأة من شر مستطير وقعت فيه.

نعم لأن أمثال أولئك الرجال في البيئات الغربية حيث لا يسمح بتعدد الزوجات يتخذون صاحبات أو خليلات، وهؤلاء لا يخرجن عن طبقة

المتاجرات بأجسادهن المحرومات من جميع الحقوق الزوجية، وهن في الواقع زوجات غير قانونيات . . .

إن الغبن الذي يقع على المرأة من ناحية هذا الارتباط،لا يقف عند حد لأنها عرضة للطرد في أي وقت دون أن يكون لها الحق في نسبة أولادها إليه، إن كان لها أولاد، فغاية الإسلام حماية المرأة من الوقوع في حالة بؤس تتجرد فيها من جميع الضمانات الاجتماعية، وتبرز في إعداد النسوة الساقطات، فالإسلام يريد أن تعامل المرأة في جميع الأحوال باعتبارها زوجة شرعية ذات حقوق، فأي حقوق أجدى للمرأة وأحفظ لكرامتها. . هل في أن تصبح زوجة ثانية لرجل تستطيع أن تطالبه بنفقتها ونفقة أولادها، وترثه إذا مات ويرث أولادها منه، أو أن تصبح في عداد المبتذلات لا حَقَّ لها منه ولا ترثه هي ولا أولادها منه، ويصبحون في حالة من البؤس ويصيرون عالة على الناس.

المبررات العلمية لتعدد الزوجات:

المبررات كثيرة لتعدد الزوجات ترجع إلى خصائص الطبيعة أو إلى الضرورات المعيشية الاجتماعية.

١- فالخصائص الاجتماعية تدل على ذلك، فقد ظهر من إحصائيات الأمم أن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في أوقات السلم فضلاً عن أوقات الحرب، فعدد النساء في معظم دول أوروبا التي اندلعت فيها الحرب يفوق عدد الرجال ولا تزال الحروب المروعة التي تظهر أنها أصبحت جزءاً من الحياة العادية في أوروبا، تعمل على اضطراب زيادة هذا العدد، وكيفية معاملة هذا الحشد المتزايد.

فالطبيعة البشرية تصرخ في طلب حاجاتها فإذا لم توضع الحلول في

الوقت المناسب فستنتشر شرور الدعارة التي أصبحت الان لطخة في جبين المرأة الأوروبية.

٢- والمبررات التي تفرضها ضرورات المعيشة الاجتماعية، هو أنه قد تصاب المرأة بمرض عضال أو بعقم أو تذهب عنها جميع المغريات الحسية والنفسية، أو يرى الرجل أن المرأة الواحدة لا تكفي لإحصانه لأن مزاجه يدفعه إلى كثرة الإفضاء، ومزاجها بالعكس، أو يكون زمن حيضها طويلاً ينتهي إلى عشرة أيام في الشهر، فلو لم يبح له الإسلام التعدد لاقترف ما ينافي الدين أو اختار الطلاق، وإن الطلاق يضر بالمرأة في هذه الحالات أضعاف ما تضرها المشاركة في زوجها.

أحكام التعدد

(١٧)

قلنا سابقاً بعد أن كانت الإباحة مُطلقةً قَيَّدها الإسلام كماً وكيفاً، قيدها كماً بتحديده أقصى عدد يباح من الزوجات، وقيدها كيفاً باشتراطِه لهذه الإباحة الأمن من الظلم، وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾[1] والمعنى: تزوجوا ممن أحل لكم من النساء ما تستطيبه نفوسكم من الواحدة حتى الأربع ولا تزيدوا على هذه، فإن خفتم أن لا تعدلوا إذا تزوجتم أكثر من واحدة فاكتفوا بواحدة، أو ما ملكت أيمانكم من الرقيقات، ذلك النظام أقرب النظم إلى أن لا يكون منكم ظلم لزوجاتكم، ولا من تعولونهم ممن تجب عليكم نفقتهم والقيام بحقوقهم.

ومما يجب لفت النظر إليه في الاية الكريمة التي أباحت التعدد، أنها جعلت إيجاب الاقتصار على زوجة واحدة معلقاً على خوف الظلم، لا على تيقنه أو ترجيحه: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾.

ومن هذا يتبين لنا بوضوح وبدون تعسف في التأويل، أن النص القرآني ضَيَّقَ دائرة إباحة التعدد أشد تضييق، لأنه جعل مجرد الخوف من الظلم مُحَرِّماً التعدد ومُوجِباً الاقتصارَ على زوجة واحدة، ألا فليدركْ ذلك كل من يرمي الإسلام بتهم هو منها براء.

---

(١) سورة النساء.

وقد كان رسول الله ﷺ وبعض أصحابه يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن مؤتمرين بوصية الرسول ﷺ: «من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»...

والعدل المطلوب هو العدل الظاهر، وليس في المحبة القلبية، فإن ذلك لا يستطيعه أحد، روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كان رسول الله يقسم فيعدل ويقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك) ويعني ﷺ المحبة وود القلب، وهذا الميل القلبي الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ ﴿١٢٩﴾﴾[1].

فإن العدل المعني في هذه الآية هو العدل القلبي، ولذلك لم يطلبه الله سبحانه وتعالى، فقد طلب من الزوج ألا يفرط ويميل لإحداهن كل الميل فيذر الأخرى كالمعلقة، أي: التي لا هي زوجة ولا هي مطلقة من العطف والمحبة.

هذا هو تشريع الإسلام في تعدد الزوجات، وهذا الذي كان عليه حال المسلمين في قرون الإسلام الأولى، ولكنه قل في هذا الزمان بما طرأ على أكثر الشعوب الإسلامية من الجهل بالإسلام وأحكامه وآدابه، فصار تعدد الزوجات مثاراً لمفاسد لا تحصى في الأزواج والأولاد.

هذا هو الذي قصده الإسلام بإباحته تعدد الزوجات ليتمكن من السيطرة على كل ما تجر إليه من فوضى الشهوات، وطغيان الميول البهيمية، لأنه يخاطب أهل أوروبا وأهل المناطق الحارة، ويخاطب المعتدلَ في شهواته

---

(١) سورة النساء.

والحار والمفرط فيها، ولذلك وجب أن يكون فيه من السعة والمرونة ما يرضي المعتدل ويهذب المفرط...



نحن الحسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية

تقديراً للصفات الحميدة التي اتصف بها المرحوم السيد محمد عزت الشريف وللخدمات القيّمة التي قدمها في حقل التربية والتعليم ، فقد منحناه وسام التربية من الدرجة الأولى وأمرنا بإصدار هذه البراءة من ديواننا إيذاناً بذلك .

صدر عن قصر بسمان في عمان في اليوم العشرين من شهر ذي القعدة سنة ألف وثلاثمائة وتسعين هجرية الموافق لليوم السابع عشر من شهر كانون الثاني سنة ألف وتسعمائة وواحد وسبعين ميلادية .

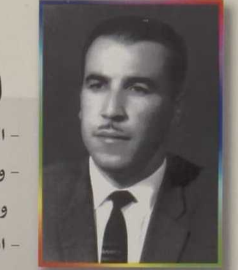
بأمر حضرة صاحب الجلالة المعظم

رئيس الديوان الملكي الهاشمي

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة





التعريف بالمؤلف

- الشيخ محمد عزت عبدالسلام الشريف
- ولد في الخليل (فلسطين) في عام ١٩٢٨م، ودرس فيها حتى أنهى الثانوية.
- انتقل إلى مصر حيث درس في الأزهر الشريف.
- حصل على الشهادة العالمية لكلية أصول الدين سنة ١٩٥٤م.
- نال شهادة الماجستير من الأزهر الشريف في فقه أصول الدين واللغة العربية.
- عمل مدرساً في وزارة التربية والتعليم الأردنية.
- كان من أوائل المدرسين في مدرسة السلط الثانوية.
- أصبح موجهاً لمادتي التربية الإسلامية واللغة العربية.
- عمل على تأليف بعض الكتب المنهجية لمادة التربية الإسلامية.
- عمل على تأليف بعض الكتب المنهجية لمادة التربية الإسلامية.
- عمل على تأليف برنامج ديني في الإذاعة الأردنية بعنوان (القرآن والحياة).
- مُنح من قِبل الملك الحسين (طيب الله ثراه) وسام المعلم المتميز بمرتبة الشرف بدرجة (أ) عام ١٩٧١ م .
- استشهد في أيلول عام ١٩٧٠م .



دار عمار للنشر والتوزيع

عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

